سلسلة في ظلال السنة

الحديث الثامن

طريق السعادة

الدكتور
الشيخ سالم بن عبد الغني الرافعي

الحديث الثامن

طريق السعادة

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة في ظلال السنَّة

الحديث الثامن
طريق السعادة

الدكتور الشيخ
سالم بن عبدالغني الرافعي

دار ابن حزم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م

تم طبع هذه الرسالة على نفقة أبناء الحاج بهاء الجمل رحمه الله تعالى صدقة عن روح أخيهم المرحوم فؤاد بهاء الجمل رحمه الله تعالى

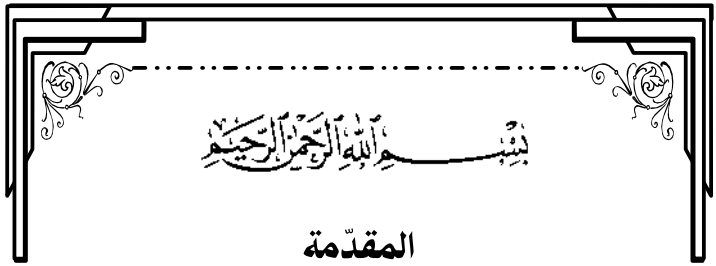

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

اللَّهم إنّا نحمدك حمداً يوافي نِعمك، ويُكافي مَزيدك، لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك. ونصلي ونسلم على عبدك ورسولك وصفوتك من خلقك محمد بن عبدالله صلوات ربي وسلامه عليه، **وبعد**:

فإن السنّة النبوية ذَخَرت بكثير من الأحكام والمواعظ والعِبر. وقد دَرَج العلماء على مرّ العصور على تأليف المصنّفات في شرح أحاديث الأحكام وغيرها من أنواع الحديث، ليسهُل على الناس الإفادة منها.

ومعلوم أن لكل عصرٍ درجتَه في فهم العلوم واستيعابها، فما كان شرحاً يفهمه أهل عصر، قد يستعجم على من بعدهم حتى يحتاجوا إلى شرح للشرح، مع ما يستجدّ في حياة الأمة من هموم وأوضاع وتغيّرات.

لذلك حَسُن في رأيي أن يكون الشرح مناسباً لأهل كل عصر، يراعي مستواهم العلمي واللغوي، كما يتطرق إلى مشاكلهم المستجدّة، وليس إلى مشاكل عصر سبق لم تعد ذات بال عندهم.

وقد بدأت هذه الخطوة في خُطب الجمعة، إذ بدأت أشرح فيها جملة من أحاديث النبي ﷺ، وأربطها بالواقع الذي نعيش فيه. وهذا أعظم أثراً في النفوس من تحويل خطب الجمعة إلى نشرات أخبار سياسية، تخلو من ذكر الآيات والأحاديث، ولا تزيد في معطياتها عن أي نشرةٍ للأخبار، فتخرج بالخطبة عن موضوعها الذي شرعت لأجله، وهو وعظ الناس وتعليمهم.

ثم رأيت جمع هذه الخُطب في رسائل صغيرة عسى أن يعمّ نفعها، وسمّيتها: «في ظلال السّنة».

واللَّهَ أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

وكتبه

الدكتور الشيخ سالم بن عبدالغني الرافعي

طرابلس ـ لبنان

بتاريخ ٢٩ جمادى الأولى ١٤٣٦هـ الموافق له ٢٠١٥/٣/٢٠م

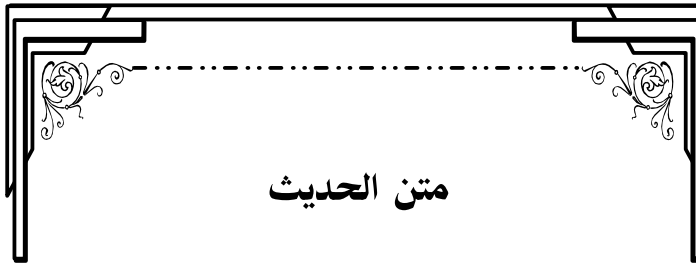

متن الحديث

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء. وأربع من الشقاء: الجار السوء، والمرأة السوء، والمركب السوء، والمسكن الضيّق**»[1].

شرح الحديث:

هذا حديث عظيم يبيّن فيه النبي ﷺ بعض خصال السعادة.

وقبل البدء بشرح هذه الخصال، أودّ أن أوطئ له بمقدّمة توضّح معنى السعادة بعون الله تعالى.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم ١٢٣٢، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٢٥٧٦.

تعريف السعادة وأهميتها:

عرّفها علماء النفس بقولهم: هي ذلك الشعور المستمر بالغبطة، والطمأنينة، والبَهْجة[1].

والناس يختلفون في أعراقهم وأجناسهم، كما يختلفون في مبادئهم وغاياتهم ومذاهبهم، لكنهم يتفقون من أولهم إلى آخرهم على أمر واحد وهو: طلب السعادة.

أوهام السعادة:

كثير من الناس يعتقد أن نيل السعادة يكون بالمال الوفير، أو المنصب الرفيع، أو الجاه العريض، أو بالتملّي من الشهوات، ولكن تبيّن من واقع الحياة وأحوال الناس أن كثيراً ممن وصل إلى هذه الغايات لم يظفروا بالسعادة، وأن هذه المغريات لم تكن إلا أوهاماً لم يلبث أن تكشّفَت لهم حقيقتُها، وأنّها لم توصلهم إلى السعادة المنشودة. وأكبر دليل على ذلك: أن الناس في أوروبا وخاصّة في الدول الإسكندنافية، يعيشون في بُحبوحة من العيش، ويتوسّعون في قضاء شهواتهم، من رقص، وملاهي، وحفلات، وزنا، وخمور، ومخدّرات،

(١) السعادة بين الوهم والحقيقة للشيخ ناصر العمر (١/٣).

وعندهم من الأعراف والعادات والقوانين ما يساعدهم على التبسّط في هذه الشهوات دون تلوّم أو مؤاخذة، ومع كل هذه الشهوات المتاحة لهم نجد أن أكبر نسبة من المنتحرين تكون فيهم، وبالأخص في شبابهم وفتياتهم، وهذا يدلّك على أنهم لم يظفروا بالسعادة رغم كل ما لديهم. وهاكم بعض الأمثلة المعيّنة:

المثل الأول: كريستينا أوناسيس كانت أغنى امرأة في العالم، وهي ابنة المليارديـر اليوناني المشهور أوناسيس. تزوجت برجل أمريكي وعاشت معه شهوراً، وطلقته. ثم تزوجت بعده برجل يوناني، فعاشت معه شهوراً وطلقته. ثم تزوجت بعدهما برجل شيوعي من روسيا، وعندما سألها الصحافيون مستغربين عن سبب هذا الزواج، فقالوا لها: أنت تمثلين الرأسمالية، فكيف تتزوجين بشيوعي؟ فأجابت: إني أبحث عن السعادة.

وبعد الزواج ذهبت معه إلى روسيا، وعاشت معه في غرفتين وبدون خادمة، لأن النظام الشيوعي لم يكن يسمح بالخدم. فجلست تخدم بيتها بنفسها، ولما سئلت عن ذلك، قالت: أبحث عن السعادة، ثم عاشت معه سنة وطلقته. وبعد فترة أقامت حفلة في فرنسا، وعندما سألها الصحافيون: هل أنت أغنى امرأة؟ قالت: نعم أنا أغنى امرأة، ولكني أشقى امرأة.

المثل الثاني: دايل كارنيجي، كاتب أمريكي، ألَّف كتاباً في معرفة طريق السعادة، وسمّاه: «دع القلق وابدأ الحياة». تُرجم كتابه إلى تسع وخمسين لغة في العالم، حتى صار من أكثر الكتب انتشاراً ومبيعاً في العالم. هذا الكاتب دلّ الناس على طريق السعادة بظنّه، وانتهت حياته بأن أخذ سكيناً ونَحَر نفسه.

فأمثال هؤلاء، ممن لم يظفروا بالسعادة رغم أنهم حصّلوا في دنياهم ما يشتهونه من مال وجاه ورغبات، كثيرون في الحياة ولا يمكن إحصاؤهم.

البحث عن طريق السعادة:

لذلك وجب على العقلاء إعادة النظر في الأسباب الموصلة إلى السعادة حقيقةً، وليست الأسباب المتوهّمة. ومعرفة الأسباب الحقيقية للسعادة هي أشرف المعارف وأنفعها، لأن تحصيل السعادة هو أعظم مطلوب للجميع. وأكبر خسارة على الإنسان أن يُنفق عمره كله بحثاً عن السعادة ثم لا يجدها. فمن وُفّق لمعرفة الطريق ثم وُفّق لاتباعه، فقد حاز الفوز العظيم في الدنيا والآخرة.

بيان طريق السعادة:

تكفّل الله سبحانه وتعالى لعباده ببيان الطريق

الموصل إلى سعادتهم في الداريْن، وذلك بما أوحاه سبحانه على لسان رسله. فلينظر الذين طلبوا السعادة بالأسباب المتوهّمة ولم يظفروا بها، فلينظروا في وحي الله تعالى، فسوف يجدون فيه بُغيتهم. ثم ليسألوا السالكين فيه، أعني الذين سلكوا طريق الله تعالى بصدق ومعرفة، كيف ظفروا حقاً بالسعادة.

* **الخطوة الأولى:**

أول خطوة في طريق السعادة هي الإيمان بالله ﷻ والعمل الصالح. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[1]. قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً ـ وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنّة نبيّه ـ من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبُه مؤمن بالله ورسوله، وإن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله ـ بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة. والحياة الطيّبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «إنها

(١) سورة النحل، الآية: ٩٧.

السعادة»[1].

إذاً الإيمان بالله ﷻ هو أول خطوة في طريق السعادة، وأما العمل الصالح فما هو إلا ثمرة من ثمرات الإيمان الحق، وأثر من آثاره.

وقد يسأل سائل: لماذا كان الإيمان بالله ﷻ أوّل خطوة في طريق السعادة؟

والجواب: لأن الصّدر لا ينشرح، والقلب لا يطمئن، إلا بذكر خالقه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾[2]، أي: أولئك الذين أنابوا إليه تعالى إيماناً وتوحيداً فهداهم إليه صراطاً مستقيماً، هؤلاء تطمئن قلوبهم بذكر الله، أي: تسكن وتستأنس بذكر الله. والطمأنينة كما عرّفها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هي: سكون القلب إلى الشيء وعدم اضطرابه وقلقه، ومنه الأثر المعروف: «**الصدق طمأنينة والكذب ريبة**» أي: الصدق يطمئن إليه قلب السامع ويجد عنده سكوناً إليه، والكذب يوجب له اضطراباً وارتياباً، ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ أي: ألا بذكره وحده

(١) تفسير ابن كثير (٤/٦٠١).
(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

دون غيره من شهوات الحياة تسكن القلوب أنساً به، ومحبة له[1].

وأما القلب الذي لا يؤمن بخالقه ولا يعرفه، فيبقى في قلقٍ واضطرابٍ وشكٍّ وحيْرة، وهي أعراض تورث الهمّ والحزن والغمّ والضيق، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[2]، قال سيد طنطاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: من أعرض عن هداي الذي جاءت به رسلي، واشتملت عليه كتبي، فإن لهذا المُعرض معيشة ضيّقة مليئة بالهمّ والغمّ والأحزان وسوء العاقبة، حتى ولو ملك المال الوفير، والحُطام الكثير[3]. وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي: خالف أمري، وما أنزلته على رسولي، أعرَض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدرُه ضيّق حَرَج لضلاله، وإن تَنَعَّم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردّد. فهذا من ضنك

---

(١) التفسير القيم لابن القيم (١/٤٩٠).

(٢) سورة طه، الآية: ١٢٤.

(٣) الوسيط لسيد طنطاوي (١/٢٨٧١).

المعيشة[1].

وقد بيّن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة أن للإيمان حلاوة يمكن تذوّقها وتحسّسها، وهذه الحلاوة هي التي تُضفي على أهل الإيمان طعم السعادة.

روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»[2]. وروى مسلم عن الْعَبَّاسِ بن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِيناً وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً**»[3]، ومعنى «**ذاق طعم الإيمان**» أي: خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه وذاق طعمه[4].

وروى أبو داود عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْغَاضِرِيِّ - مِنْ غَاضِرَةِ قَيْسٍ - قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ طَعِمَ طَعْمَ الإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَأَنَّهُ لاَ**

(١) تفسير ابن كثير (٥/٣٢٢).
(٢) أخرجه البخاري برقم ١٦، ومسلم برقم ٤٣.
(٣) أخرجه مسلم برقم ٤٩.
(٤) شرح النووي على مسلم (٢/٢).

إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ رَافِدَةً عَلَيْهِ كُلَّ عَامٍ[1]، وَلاَ يُعْطِي الْهَرِمَةَ وَلاَ الدَّرِنَةَ[2] وَلاَ الْمَرِيضَةَ وَلاَ الشَّرَطَ[3] اللَّئِيمَةَ[4] وَلَكِنْ مِنْ وَسَطِ أَمْوَالِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهُ وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بِشَرِّهِ»[5].

والقلوب إذا ذاقت حلاوة الإيمان واستشعرته، غمرتها سعادة لا توصف؛ لذلك تراها تتعلق بالإيمان بكل قوّتها وتحارب الدنيا كلها من أجله. فتمسُّك القلوب بالإيمان دليل على استشعارها لحلاوته، وهي إحدى الدلائل التي استدلّ بها ملك الروم هرقل على صدق نبوّة نبينا محمّد ﷺ.

---

(١) قوله: «**رافدة عليه**» أي: معينة، وأصل الرفد: الإعانة، والضمير الذي في «**عليه**» يرجع إلى الإعطاء، الذي يدل عليه قوله: «**وأعطى**»، والمعنى معينة على إعطائها، أي: أداء الزكاة.

(٢) الدرِنة ـ بفتح الدال، وكسر الراء ـ، أي: الجرباء، وأصل الدرن: الوسخ.

(٣) الشرَطُ ـ بفتح الشين والراء ـ: رذالة المال، قال الشاعر:

. . . . . وفي شَرَطِ المِعزَى لهن مهور

قال ابن الأثير: وقيل: صغار المال وشراره.

(٤) اللئيمة: البخيلة باللبن.

(٥) رواه أبو داود برقم ١٥٨٤، وصحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٠٤٦.

فالرسول ﷺ لمّا بعث كتاباً إلى هرقل، يخبره فيه أنه رسول من عند الله، ويدعوه فيه إلى الإسلام، لم يتعجّل هرقل الجواب، بل أراد التثبّت من صدق الخبر. فقام هرقل بإحضار بعض العرب، ممن قصدوا امبراطوريته بهدف التجارة، ليسألهم عن أمر محمد ﷺ. وكان في زمرة هؤلاء أبو سفيان بن حرب زعيم قريش، ولم يكن حينها مسلماً، فسأله هرقل خمسة عشر سؤالاً، يستكشف بها حقيقة محمد ﷺ وصدق دعواه، وكان من جملة الأسئلة أن قال له:

«هل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فقال أبو سفيان: لا». ثم في نهاية الاستجواب بيّن هرقل لأبي سفيان والتجار العرب الذين معه مغزى تلك الأسئلة، وكيف استنتج من أجوبتها أن محمداً رسول من عند الله. قال هرقل لأبي سفيان: «وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ، فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ، لَا يَسْخَطُهُ أَحَدٌ»[1].

فكيف استنتج هرقل من هذا الجواب صدق نبّوة محمد ﷺ؟ هرقل لما سأل أبا سفيان عن أتباع النبي ﷺ: هل كان أحد منهم يؤمن بمحمد لفترة ثم

(١) أخرجه البخاري برقم ٢٧٨٢.

يتركه ذامًّا له ولدينه؟ فقال أبو سفيان: لا، لم يحصل هذا. فاستدلّ بذلك أن دعوة محمد هي دعوة إلى الإيمان الحق وليست إلى أمر دنيوي، لأن أهل الإيمان إذا ذاقوا حلاوته تشبّثوا به ولم يتخلوا عنه بل ذادوا عنه بأغلى ما يملكون، بخلاف أهل الدنيا، والمجتمعين على اللذات والشهوات، فإن المودّة لا تدوم بينهم طويلاً، إذ لا يلبثون إلا قليلاً حتى يتنافروا ويتباغضوا وتظهر العداوات بينهم.

أمثلة لمن ذاق حلاوة الإيمان:

التاريخ الإسلامي زاخر بسِيَر رجال ذاقوا حلاوة الإيمان فغمرت السعادة كيانهم، حتى لم يتمالكوا أن يصرّحوا بالفرح الذي ملأ حياتهم. فهذا إبراهيم بن أدهم كان زاهداً عابداً فقيراً، لا يجد إلا كسرة الخبز، ومع هذا كان يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من لذيذ العيش لجالدونا عليه بالسيوف[1]. وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنّة من لم يدخلها لا يدخل جنّة الآخرة. وقال لي مرّة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنّتي وبستاني في صدري إن رحت فهي معي لا

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي (٩٦/١).

تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القاعة ذهباً ما جزيتُهم على ما تسبّبوا لي فيه من الخير. وكان يقول في سجوده، وهو محبوس: اللَّهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، ما شاء الله. وقال لي مرّة: المحبوس من حُبس قلبه عن ربّه تعالى، والمأسور من أسره هواه. ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه، وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[1].

وعَلِم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنّعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس، والتهديد، والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرّهم نفساً، تلوح نضرة النّعيم على وجهه. وكنا إذا اشتدّ بنا الخوف، وساءت منّا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة. فسبحان من أشهد عباده

(١) سورة الحديد، الآية: ١٣.

جنَّته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من رَوحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

وكان بعض العارفين يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف. وقال آخر: مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها؟ قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى، ومعرفته، وذكره، أو نحو هذا. وقال آخر: إنه لتمرّ بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً. وقال آخر: إنه لتمرّ بي أوقات، أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنّهم لفي عيش طيّب.

فمحبة الله تعالى، ومعرفته، ودوام ذكره، والسكون إليه، والطمأنينة إليه، وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة، بحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد وعزماته وإرادته، هو جنّة الدنيا، والنّعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قوّة عين المحبين، وحياة العارفين، وإنما تقرّ عيون الناس به على حسب قرّة أعينهم بالله ﷻ، فمن قرّت عينه بالله قرّت به كل عين، ومن لم تقرّ عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات[1].

---

(١) الوابل الصيّب (٦٧/١).

واقع الناس:

بعض الناس قد يتساءل: إذا كان الإيمان يورث هذه السعادة في الدنيا، التي لا توازيها السعادة بامتلاك كنوز الأرض كلها، ويشعر أهل الإيمان بفرحة لا توصف، حتى أن ملوك الدنيا لو ذاقوها مرّة، لقاتلوا أهلها بالسيوف من أجل الفوز بها، فلماذا لا يشعر كثير من المؤمنين بهذه السعادة؟ والجواب أن كثيراً من الناس، وإن ظهرت منهم أعمال الإيمان، إلا أنهم لم يستوفوا حقيقة الإيمان، ولم يحققوا خصاله، بل تجدهم أقرب إلى أهل الدنيا منهم إلى أهل الإيمان، بسبب حبّهم للمال وتكالبهم عليه، لذلك يُنقص من سعادتهم على قدر النقص الذي أصابهم في إيمانهم.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال بعض أحبار بني إسرائيل: يا رب، كم أعصيك ولا تعاقبني؟ فقيل له: كم أعاقبك وأنت لا تدري، أليس قد حرمتُك حلاوة مناجاتي؟

قال: فمن تأمل هذا الجنس من المعاقبة وجده بالمرصاد، حتى قال وهب بن الورد، وقد سئل: أيجد لذة الطاعة من يعصي؟ فقال: ولا من همّ.

فرُبّ شخص أطلق بصره فحُرِم اعتبار بصيرته، أو

لسانَه فحرَمَه الله صفاء قلبه، أو آثر شُبهة في مطعمه فأَظلم سِرُّه، وحُرم قيام الليل وحلاوة المناجاة، إلى غير ذلك[1].

* الخطوة الثانية:

ثاني خطوة في طريق السعادة هي الإيمان بالقضاء والقدر:

تتبّعتُ أحوال كثير من المهمومين والمُتعَبين، فوجدت أشدّ ما يُهمّهم ويُتعبهم ثلاثة أمور:

الأمر الأول: هو الحزن الطويل على ما فات. فيقضي أحدهم الساعات الطويلة من عمره وهو مستغرق في الماضي، يتذكر أحداثه التي مرّت به، والمصائب التي ألمّت به، فيندم على ما فات ويتحسّر، ويبقى يلوم نفسه ويعنّفها: أنه لو فعل كيت وكيت لما جرى عليه ما جرى، فيتكدّر خاطره، وتضعف عزيمته، ويمتلئ جوفه حزناً.

الأمر الثاني: التبرّم بالعيش. فينظر أحدهم إلى ما هو فيه من عيش ضيّق، ومن منغّصات تلاحقه هنا وهناك، فيتمنّى لو كان له من نعيم الدنيا ما لفلان

(١) صيد الخاطر (١/١٤).

وفلان، لتذهب عنه منغّصاته وينعم بعيش رغيد، ولكن ما كل ما يتمنّى المرء يدركه، فيُفيق من أمنياته وأحلامه إلى واقعه الحقيقي الذي يعيشه، فيُصاب بالإحباط والضّيق والتذمّر من حياته.

الأمر الثالث: الخوف من المستقبل؛ فيبقى أحدهم خائفاً من تعقيدات قد تطرأ عليه في قادم الأيام، ويترتب عليها نتائج لا تُحمد عقباها، فيبقى في همّ واضطراب وقلق، وتراه مشغول البال يفكر في هذه المخاوف وكيفية تفاديها وتجنّبها.

وهذه الأمور الثلاثة قلما ينجو منها الناس عموماً، وهي التي تسبّب لهم كثيراً من الاضطراب والهمّ والكآبة، وتسرق منهم ساعات السعادة. ولا نجاة للناس من آثارها إلا إذا حققوا في أنفسهم معنى الإيمان بالقضاء والقدر.

ولكن كيف يكون الإيمان بالقضاء والقدر علاجاً لهذه الأدواء التي تُشقي الناس وتتعبهم؟ وجواب ذلك يحتاج إلى تفنيد الأمور الثلاثة والرجوع إلى أسبابها:

فالأمر الأول: وهو حزن الإنسان على الماضي ومآسيه، إنما أتاه من قبل عدم يقينه بما أخبر الله تعالى

به وأخبر به رسوله ﷺ من أن المصائب التي ابتُلي بها الناس كانت قدَراً محتوماً عليهم ما كان بامكانهم التفلّت منها بحال.

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾[1]، أي: ما أصابكم أيها الناس من مصيبة في الأرض، بالجَدْب والقحْط أو الطوفان أو الجوائح تصيب الزّرع، ولا في أنفسكم، أي: بالمرض وفَقْد الولد، إِلَّا فِي كِتَابٍ، أي: إلَّا وهي في كتاب المقادير، اللوح المحفوظ، مكتوبة بكمّيّتها وكيفيّتها وزمانها ومكانها، مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا، أي من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة، ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إن علمه تعالى بالأشياء قبل كونها، وكتابته لها طِبْق ما يوجد في حينها، سهل على الله ﷻ؛ لأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون[2].

---

(١) سورة الحديد، الآيتان: ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) انظر تفسير ابن كثير وأيسر التفاسير لشيخي أبي بكر الجزائري رحمهما الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: أي أعلمناكم بتقدُّم علمنا وسبْق كتابتنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تأسَوْا على ما فاتكم، فإنه لو قُدّر شيء لكان .﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدّكم، وإنما هو عن قدَر الله ورزقه لكم، فلا تتخذوا نِعَم الله أشَراً وبَطراً، تَفخرون بها على النّاس؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: مختال في نفسه متكبّر، فخور، أي: على غيره[1].

وقال سيّد طنطاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: فالآية الكريمة صريحة في بيان أن ما يقع في الأرض وفي الأنفس من مصائب ـ ومن غيرها من مَسرّات ـ مكتوب ومسجّل عند الله تعالى قبل خلق الأرض والأنفس. وخَصّ سبحانه المصائب بالذّكر، لأن الإنسان يضطرب لوقوعها اضطراباً شديداً، وكثيراً ما يكون إحساسه بها، وإدراكه لأثرها، أشدّ من إحساسه وإدراكه للمسرّات. ومن

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٢).

الآيات التي تشبه هذه الآية في معناها قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

ثم بيّن سبحانه الحِكم التي من أجلها فعل ذلك، فقال: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: فعلنا ما فعلنا من إثبات ما يصيبكم في كتاب من قبل خلقكم، وأخبرناكم بذلك، لكي لا تحزنوا على ما أصابكم من مصائب حُزناً يؤدي بكم إلى الجزَع، وإلى عدم الرّضا بقضاء الله وقدره. ولكي لا تفرحوا بما أعطاكم الله تعالى من نِعم عظمى وكثيرة فرحاً يؤدي بكم إلى الطّغيان، وإلى عدم استعمال نِعم الله تعالى فيما خُلقت له. فإن من عَلم ذلك علماً مصحوباً بالتدبّر والاتّعاظ، هانت عليه المصائب، واطمأنّت نفسه لما قضاه الله تعالى، وكان عند الشدائد صَبُوراً، وعند المسرّات شكوراً. ورحم الله صاحب «الكشاف» فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ... ﴿٢٣﴾﴾: يعني أنكم إذا علمتم أنّ كل شيء مقدّر مكتوب عند الله، قلّ أَساكُم على الفائت، وفرحُكم على الآتي؛ لأنّ من علم أن ما عنده معقود لا محالة، لم يتفاقم جزعه عند فَقْده، لأنه وطّن نفسه على ذلك، وكذلك من علم أنّ بعض الخير واصل إليه، وأن وصوله لا يفوته بحال، لم يعظُم

فرحه عند نيْله[1]. فإن قلت: فلا أحد يملك نفسه عند مضرّة تنزل به، ولا عند منفعة ينالها، أن لا يحزن ولا يفرح؟ قلت: المراد: الحزن المخرج إلى ما يُذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء ثواب الصابرين، والفرح المُطغي المُلهي عن الشكر؛ فأما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام، والسرور بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر: فلا بأس بهما. ثم ختم سبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ أي: والله تعالى لا يحبّ أحداً من شأنه الاختيال بما آتاه سبحانه من نعم دون أن يشكره تعالى عليها، ومن شأنه أيضاً التفاخر والتباهي على الناس بما عنده من أموال وأولاد... وإنما يحب الله تعالى من كان من عباده متواضعاً حليماً شاكراً لخالقه ﷻ.

فأنت ترى أن هاتين الآيتين قد سَكبتا في قلب المؤمن، كل معاني الثقة والرضا بقضاء الله في كل الأحوال[2].

---

(١) الكشاف للزمخشري (٢/٧)، ومنه نقلت نصّ كلامه لتحريفٍ ورد في الوسيط.

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي (٤١٠١/١).

وقال تعالى ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾[1].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول تعالى مخبراً بما أخبر به في سورة الحديد: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾، وهكذا قال هاهنا: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: بأمر الله، يعني: عن قدَره ومشيئته. ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله، هَدَى الله قلبه، وعَوَّضه عما فاته من الدنيا هُدًى في قلبه، ويقيناً صادقاً، وقد يُخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيراً منه. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ يعني: يهدِ قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه[2].

وأما من لم يؤمن بأن كل شيء مقدّر ومكتوب،

---

(١) سورة التغابن، الآيات: ١١ ـ ١٣.

(٢) تفسير ابن كثير ـ (١٣٧/٨).

فلن يُضني إلا نفسه، ولأذهب أيامه في الملامة والتحسّر، وهذا ما حذّر الله تعالى منه عباده المؤمنين. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦﴾[1]. قال السّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين، الذين لا يؤمنون بربهم، ولا بقضائه وقدره، من المنافقين وغيرهم، ينهاهم عن مشابهتهم في كل شيء، وفي هذا الأمر الخاص وهو: أنهم يقولون لإخوانهم في الدّين أو في النّسب، ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: سافروا للتجارة ﴿أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى﴾ أي: غُزاة، ثم جرى عليهم قتل أو موت، يعارضون القدَر ويقولون: ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ وهذا كذب منهم، فقد قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ ولكن هذا التكذيب لم يُفدهم، إلا أن الله يجعل هذا القول، وهذه العقيدة حسرة في قلوبهم، فتزداد مصيبتهم. وأما المؤمنون بالله فإنهم يعلمون أن ذلك بقدَر الله، فيؤمنون ويُسلّمون، فيهدي الله قلوبهم ويثبّتها، ويخفّف بذلك عنهم المصيبة.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٦.

قال الله ردًّا عليهم: ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾ أي: هو المنفرد بذلك، فلا يغني حذَر عن قدَر. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فيجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم[1].

إذاً لو أيقن الإنسان بما أخبر الله تعالى به وأخبر به رسوله ﷺ من: أن المصائب التي نزلت به كانت قدَراً محتوماً عليه، ما كان بإمكانه التفلّت منها، لاستسلم لأمر الله تعالى واطمأنّ قلبه وسكنَت نفسُه، ولما تحسّر على ما فات، ولا أمضى الساعات الطويلة يفكر في الماضي، ويتذكر أحداثه وآلامه، ويقول: لو لم أفعل كذا وكذا لما وقع عليّ ما وقع. فالإيمان بقضاء الله وقدره يورث الإنسان سلاماً وطمأنينة وسكينة، وهذه هي سعادة القلب، بخلاف غير المؤمنين بالقضاء والقدر الذين يتحسّرون على كل شيء فات، ويظنّون أن المصائب التي ابتُلوا بها كان بإمكانهم تفاديها، فتتكدّر خواطرهم، وتضعُف عزائمهم وقواهم، ويصابوا بالكآبة والضّيق والملل، وهي من موجبات شقاء القلب.

وإذا ثبت لدينا أن السعادة لا تتحقق إلا بالإيمان، فإن الإيمان لا يكتمل حتى يرتقي المرء إلى درجة اليقين

---

(١) تفسير السعدي (١/١٥٣).

بالقضاء والقدر. قال رسول الله ﷺ: «**لا يَبلُغُ عَبدٌ حَقيقةَ الإيمانِ حتى يَعْلَمَ أنَّ ما أصابَهُ لم يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وما أَخْطَأَهُ لم يَكُنْ لِيُصيبَهُ**»(١).

وأما الأمر الثاني: وهو تبرّم المرء بعيْشه وتذمّره من حياته، فكذلك أتاه من قبل عدم يقينه بما أخبر الله تعالى به وأخبر به رسوله ﷺ من: أن الرزق مقسوم ومكتوب، وأن المرء لن ينال إلا ما قُسم له من رزق.

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٣٢﴾(٢).

قال سيد طنطاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: وقال هؤلاء المشركون ـ على سبُل العناد والحسد ـ: هلا أنزل هذا القرآن، الذي يقرؤه علينا محمد ﷺ على رجل عظيم في ماله وسلطانه، ويكون من إحدى هاتين القريتين، وهما مكة أو الطائف.

---

(١) أخرجه البزار في كشف الأستار من حديث أبي الدرداء، وصحّحه الألباني في الصحيحة برقم ٣٠١٩.

(٢) سورة الزخرف، الآيتان: ٣١ ـ ٣٢.

فهم لجهلهم وانطماس بصائرهم، استكثروا أن ينزل هذا القرآن على محمد ﷺ، الذي وإن كان في القمّة من الشرف والسموّ بين قومه، إلا أنه لم يكن أكثرهم مالاً وسلطاناً، وهم يريدون أن تكون النبوّة في زعيم من زعمائهم، أو رئيس من رؤسائهم، وهذا منهم ـ كما يقول الآلوسي ـ لجهلهم بأن رتبة الرسالة، إنما تستدعي عظيم النفس، بالتخلّي عن الرذائل الدنيّة، والتحلّي بالكمالات والفضائل القدسيّة، دون التزخرف بالزخارف الدنيوية. وقد وبّخهم الله تعالى على جهلهم هذا بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ فالاستفهام للإنكار والتهكّم بهم، والتعجّب من تفكيرهم. والمراد بالرحمة: ما يشمل النبوة، وما أنزله على نبيه ﷺ من وحي، وما منحه إياه من خلق كريم، وخير عميم، أي: كيف بلغ الجهل والغباء بهؤلاء المشركين إلى هذه الدرجة؟ إنهم ليس بيدهم ولا بيد غيرهم عطاء ربك، وليس عندهم مفاتيح الرسالة ليضعوها حيث شاؤوا، وليختاروا لها من أرادوا، وما دام الأمر كذلك فكيف يعترضون على نزول القرآن عليك أيها الرسول الكريم؟

ثم بيّن سبحانه مظاهر قدرته في خلقه فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا...﴾ أي: نحن قسمنا

بينهم أرزاقهم في هذه الدنيا، ولم نترك تقسيمها لأحد منهم، ونحن الذين بحكمتنا تولينا تدبير أسبابها ولم نكِلها إليهم، لعِلمنا بعجزهم وقصورهم. ونحن الذين رفعنا بعضهم فوق بعض درجات في الدنيا، فهذا غني وذاك فقير، هذا مخدوم وذاك خادم، وهذا قوي وذاك ضعيف. ثم ذكر سبحانه الحكمة من هذا التفاوت في الأرزاق فقال: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، أي: فعلنا ذلك ليستخدم بعضهم بعضاً في حوائجهم، ويعاون بعضهم بعضاً في مصالحهم، وبذلك تنتظم الحياة، وينهض العمران، ويعمّ الخير بين الناس، ويصل كل واحد إلى مطلوبه على حسب ما قدّر الله تعالى له من رزق واستعداد.. ولو أنا تركنا أمر تقسيم الأرزاق إليهم لتهارجوا وتقاتلوا، وعمّ الخراب في الأرض، لأن كل واحد منهم يريد أن يأخذ ما ليس من حقه، لأن الحرص والطمع من طبيعته. وإذا كان هذا هو حالهم بالنسبة لأمور دنياهم، فكيف أباحوا لأنفسهم التحكّم في منصب النبوة، وهو بلا شك أعلى شأناً، وأبعد شأواً من أمور الدنيا. وقوله: ﴿سِخْرِيًّا﴾ ـ بضم السين ـ من التسخير، بمعنى تسخير بعضهم لبعض وخدمة بعضهم لبعض، وعمل بعضهم لبعض، فالغني ـ مثلاً ـ يقدّم المال لغيره، نظير ما يقدّمه له ذلك الغير من عمل معيّن. وبذلك تنتظم أمور الحياة، وتسير في طريقها الذى رسمه

سبحانه لها[1].

وروى الترمذي عن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْماً فَقَالَ: «**يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ. احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ. إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ. وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ. وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ. رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»[2].

وروى ابن ماجه عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس، اتقوا الله وأجمِلوا في الطّلب**[3]**، فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حلّ ودعوا ما حرّم**»[4].

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي (١/٣٧٩٦).

(٢) رواه الترمذي برقم ٢٧٠٦، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وصحّحه الألباني في مشكاة المصابيح برقم ٥٣٠٢.

(٣) أَجْمَلَ فِي الطَّلَب: إِذَا اِعْتَدَلَ وَلَمْ يُفْرِطْ، كما في حاشية السّندي على ابن ماجه (٤/٣٧١).

(٤) رواه ابن ماجه برقم ٢١٣٥، وصحّحه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم ١٧٤٣.

فلو أيقن الإنسان بما أخبر الله تعالى به وأخبر به رسوله ﷺ من: أن الرزق مكتوب، لما تبرّم بعيشه، لأنه يعلم أن تبرّمه لن يغيّر ما كتب. ولو أيقن أن الرزق مقسوم، لما تطلع إلى ما في أيدي الآخرين، لأنه يعلم أنه لن ينال من الأرزاق إلا ما قُسم له، فلو أيقن بهذا وذاك لرضي بما كتب الله له، وقنع بما آتاه الله، ولاستراح من هموم كثيرة يورثها عدم الرضا وعدم القناعة.

روى مسلم عَنْ عَبْدِاللَّهِ بنِ عَمْرِو بنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافاً وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ**»(١).

وروى مسلم أيضاً عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلاَ تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لاَ تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكم**»(٢).

وروى البيهقي عن محمد بن أبي عبدان قال: قيل لحاتم الأصم: على ما بنيت أمرك هذا من التوكل؟ قال: على أربع خلال: علمتُ أن رزقي لا يأكله غيري

---

(١) رواه مسلم برقم ٢٤٧٣.

(٢) رواه مسلم برقم ٧٦١٩.

فلست أهتمّ له. وعلمت أن عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به. وعلمت أن الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره. وعلمت أني بعين الله في كل حال فأنا أستحيي منه[1].

وهناك قصة جميلة جرت مع الشيخ حسن حبنّكه الميداني رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد رواها الدكتور وائل عبدالرحمٰن حبنكة الميداني، قال: قال الشيخ حسن رَحِمَهُ اللَّهُ: كنتُ عائداً إلى بيتي قبل المغرب بساعة في يوم من أيّام رمضان... فاستوقفني رجلٌ فقيرٌ من الذين يتردَّدون على درسي في البيت والمسجد تردُّدَ الزائر... سلّم عليّ بلهفةٍ أدْمَعَت عيني وقال لي: أسْتَحلِفكَ بوجه الله أن تَفْطَرْ عندي اليوم... يقول الشيخ: عقدتْ لساني لهفتُه وطوّقت عنُقي رغبتُه وأشرق في قلبي وجهٌ استحلفني به... فقلتُ له: يا أخي، الأهل بانتظاري وظروفي لا تسمح... ولكنْ!!! يقول الشيخ: وجدتُ نفسي أتبعه إلى بيته الذي لا أعرف مكانه ولا أعرف ظرْفه في هذا الوقت الحرج من موعد الإفطارْ!!!

يقول الشيخ: وصلنا إلى بيته فإذا هو غرفةٌ ومطبخٌ وفناءٌ مكشوفٌ صغير على سطحٍ اشتراه من أصحابه!! وهذا البيت له مدخلٌ ودرجٌ خاص من الخشب لا

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان برقم ١٢٧٤.

يحتمل صعود شخصين فخشباته تستغيثُ من وهَنٍ خلَّفَهُ بها الفقرُ والقِدَمْ..

كانت السعادةُ تملأ قلب هذا الرجل، وعباراتُ الشكر والامتنان تتدفّق من شفتيه وهو يقول للشيخ: شوف سيدي هذا البيت مِلكي (الملك لله) ما حدا إلو عندي فرَنْكْ... شوف سيدي: الشمس بتشرق على غرفتي الصبح وبْتغرُب من الجهه التانيه.. وهَيْ المشْرَأَهْ بقرأ فيها القرآن عند الفجر وقبل المغيب... وزوجتي الله يرضى عليها بتعُدْ على هادا الشبّاك وبْتدْعيلي... والله يا سيدي كأني عايش بالجنّه!!

يتابع الشيخ ويقول: كل هذا يجري على مسامعي وأنا أصعد على الدرج بحذر خِشْيَةَ السقوط!!!

لحظات والشيخ يسمع بعد أن وصل إلى الغرفه صوتاً خافتاً من صاحب الدار يقول لزوجته في المطبخ: حضّريلنا فطور.. الشيخ حسن حبنّكه حيفْطَرْ عندي!!! فقالت له زوجته: يا فضيحتي! ما عندي أكل غير فول مدمّس، وبقيان لأذان المغرب نص ساعة.. لا عنا شي نطبخو!! ولو عندنا شي ما بلحّق إطبخ!!!!

بالكاد سمع الشيخ هذا الحوار... فنادى على صاحب الدار وقال له: يا أخي، لي شرط عندك...

فقال الرجل: امرْني سيدي... فقال الشيخ: أنا لا أفطر مع أذان المغرب إلا ماء ومعي التمر.. ولا أفطر إلّا بعد نصف ساعة من الأذان بعد ما أهضم الماء والتمر وصلّي وأُنهي وِرْدي اليومي.. ولا آكل إلّا فول مدمّس ومْقَلّاية ببطاطا مع الكزبرة والتوم وغير ذلك لا آكل شيء فأنا على حمْيَةِ البطاطا... والآن دعني لأختلي مع ربّي (يقول لنا الشيخ: البطاطا زادُ الفقراء وأحسبها عندهم).. فقال الرجل: أمرك سيدي.

وتمّ ما أراده الشيخ وأفطر عنده وغادر.. يقول الشيخ: خرجتُ وكلّي سعادةٌ وبهجة وأحببتُ الدنيا على لسان هذا الرجل الذي ما نَزَلَتْ من فمه عباراتُ الثناء والحمد على نعم الله وعلى هذا البيت الذي ملّكَهُ الله إيّاه وعلى هذه الحياة الجميلة التي يتغنّى بها!!!!

يقول الشيخ: دُعيت بعد أيام مع مجموعةٍ من الوجهاء على الإفطار عند أحد التجّار الأثرياء، وكان من الذين أنعم الله عليهم بالمال والجاه والأولاد والأسرةِ المرموقة... كانت الدعوة في مزرعةٍ فخمة، فيها مما لذّ وطاب، تتوسّطها ڤيلا أقرب ما تكون للقصر منها إلى الڤيلا... تُطلُّ على مسبحٍ ومرْبَطْ خيل فيه نوادر الخيل الأصيله!!! يقول الشيخ: أفطرنا عند الرجل، وأثناء المغادرة انفرد صاحب الدعوةِ بالشيخ

حسن وشكى له من ضيق الحياة وهموم التجاره ومتاعب الأولاد وسوء طباع زوجته وطمع من حوله به، وكَثرَةِ المصاريف وجرْيه المُتْعِبْ لإرضاء الجميع... وسأَمِه من هذه الحياة ورغبته بالموت ليتخلّص من هذه الهموم!!!!!!!

يقول الشيخ: من باب ثيلَةِ صاحب الدعوة إلى باب سيارتي سَوَّدَ هذا الرجل الدنيا في عيوني... وأطبق عليَّ صدري وأنفاسي، فنظرتُ إلى السماء بعد أن ركبتُ بسيّارتي وأنا أقول في قلبي: الحمد لله على نعمةِ الرّضا...

ليست السعادةُ بكثيرٍ ندفع ثمنه!!! السعادةُ حُسنُ صِلَةٍ بالله ورضاً بما قَسَمَ الله[1].

وأما الأمر الثالث والأخير: وهو خوف الإنسان من المستقبل ومن مصائب قد يُبتلى بها في قادم الأيام، فأيضاً أتاه من قبل عدم يقينه بما أخبر الله تعالى به وأخبر به رسوله ﷺ من: أن ما قدّر الله تعالى على الإنسان من خير أو شر فهو آتٍ لا محالة ولا يمكنه دفعه. قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ

(١) سحاب الخير ـ قسم الشعر والقصص الشعبية.

وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾[1].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: يُعلم تبارك وتعالى نبيّه بعداوة هؤلاء له؛ لأنه مهما أصابه من ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي: فتح ونصر وظفر على الأعداء، مما يسرّه ويسرّ أصحابه، ساءهم ذلك، ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: قد احترزنا من متابعته من قبل هذا، ﴿وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾. فأرشد الله تعالى رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامّة، فقال: ﴿قُل﴾ أي: لهم ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي: نحن تحت مشيئة الله وقدره، ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ﴾ أي: سيدنا وملجؤنا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل[2].

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفائدة هذا الجواب أن الإنسان إذا علم أن ما قدّره الله كائن، وأن كل ما ناله من خير أو شرّ إنما هو بقدر الله وقضائه، هانت عليه المصائب، ولم يجد مرارة شماتة الأعداء وتشفّي الحسدة»[3].

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٥١ ـ ٥٢.

(٢) تفسير ابن كثير (١٦١/٤).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٢٦٦/٣).

فلو أيقن الإنسان بما أخبر الله تعالى به وأخبر به رسوله ﷺ من: أن ما قدّر الله تعالى على الإنسان من خير أو شر فهو آتٍ لا محالة ولا يمكنه دفعه، لما أصابه همّ أو اضطراب أو قلق من المستقبل، بل لوطّن نفسه على الرضى بما سيقسم الله له، فيطمئن قلبه وتستريح نفسه.

قال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده؛ لا يقضِ الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابه سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له**»[1].

الأخذ بالأسباب:

وإيمان الإنسان بالقضاء والقدر، وأن ما قُدّر عليه من مصيبة أو قسم الله له من رزق فسوف يأتيه لا محالة، لا يعني بحال ترك الأسباب وعدم مباشرتها، لأن الإنسان لا يعلم ما قُسم له. فلا يصح من الفقير مثلاً أن يترك العمل ويقول: بأن الله تعالى لم يقدّر لي الغنى، لأنه لا يعلم ما قدّر له، بل عليه مباشرة

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٤)، وصحّحه الألباني في تخريج شرح الطحاوية لابن أبي العزّ (١/١٦٣).

الأسباب، فهو مأمور بذلك، ثم ما يصيبه بعد الأخذ بالأسباب فعليه أن يرضى به سواء كان فقراً أو غنى.

قال رسول الله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[1].

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: فقوله عليه الصلاة والسلام: «**احرص على ما ينفعك**» هو وصيّة من الرسول عليه الصلاة والسلام إلى أمّته، وهي وصيّة جامعة مانعة. «**احرص على ما ينفعك**»، يعني: اجتهد في تحصيله ومباشرته. ثم قال: «**واستعن بالله**»، أي: لا تنسَ الاستعانة بالله ولو على الشيء اليسير. ثم قال: «**ولا تعجز**»، أي: لا تكسل وتتأخر في العمل إذا شرعت فيه، بل استمر لأنك إذا تركت ثم شرعت في عمل آخر، ثم تركت ثم شرعت ثم تركت، ما تمّ لك عمل. ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**فإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا**»، يعني: بعد أن تحرص وتبذل الجهد وتستعين بالله وتستمر، ثم يخرج

---

(١) رواه مسلم برقم ٦٩٤٥ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأمر على خلاف ما تريد، فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا، لأن هذا أمر فوق إرادتك، أنت فعلت الذي تؤمر به ولكن الله ﷻ غالب على أمره ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].

ونضرب مثالاً لذلك: إذا سافر رجل يريد العمرة ولكنه في أثناء الطريق تعطلت السيارة، ثم رجع فقال: لو أني أخذت السيارة الأخرى لكان أحسن ولما حصل علي التعطل، نقول: لا تقل هكذا، لأنك أنت بذلت الجهد، ولو كان الله ﷻ أراد أن تبلغ العمرة ليسّر لك الأمر، ولكن الله لم يرد ذلك.

فالإنسان إذا بذل ما يستطيع بذله وأخلفت الأمور فحينئذٍ يفوّض الأمر إلى الله، لأنه فعل ما يقدِر عليه. ولهذا قال: «**إن أصابك شيء**»، يعني: بعد بذل الجهد والاستعانة بالله ﷻ، «**فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا**». وجزى الله عنا نبيّنا خير الجزاء فقد بيّن الحكمة من ذلك، حيث قال: «**فإن لو تفتح عمل الشيطان**»، أي: تفتح عليك الوساوس والأحزان والندم والهموم، حتى تقول: لو أني فعلت لكان كذا، فلا تقل هكذا، والأمر انتهى ولا يمكن أن يتغيّر عما وقع، وهذا أمر

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.

مكتوب في اللوح المحفوظ قبل أن تخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وسيكون على هذا الوضع مهما عملت.

ولهذا قال: «**ولكن قل قدّر الله**»، أي: هذا قدر الله، أي: تقدير الله وقضاؤه، وما شاء الله ﷻ فعله ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[1]، لا أحد يمنعه في ملكه ما يشاء، ما شاء فعل ﷻ.

ولكن يجب أن نعلم أنه سبحانه وتعالى لا يفعل شيئاً إلا لحكمة، خفيت علينا أو ظهرت لنا. والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾[2]، فبيّن أن مشيئته مقرونة بالحكمة والعلم، وكم من شيء كره الإنسان وقوعه فصار في العاقبة خيراً له، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[3]، ولقد جرت حوادث كثيرة تدل على هذه الآية. من ذلك قبل عدة سنوات أقلعت طائرة من الرياض متجهة إلى جدة، وفيها ركاب كثيرون يزيدون عن ثلاثمائة راكب. وكان أحد الركاب

---

(١) سورة هود، الآية: ١٠٧.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

الذين سجلوا في هذه الطائرة في قاعة الانتظار حتى نام، وأعلن عن إقلاع الطائرة، وذهب الركاب وركبوا، فإذا بالرجل يستيقظ بعد أن أغلق الباب، فندم ندامة شديدة، كيف فاتته الطائرة؟ ثم إن الله قدّر بحكمته أن تحترق الطائرة وركابها، فسبحان الله كيف نجا هذا الرجل؟ كره أنه فاتته الطائرة، ولكن كان ذلك خيراً له.

فأنت إذا بذلت الجهد واستعنت بالله وصار الأمر على خلاف ما تريد، لا تندم ولا تقل: لو أني فعلت لكان كذا، إذا قلت هذا انفتح عليك من الوساوس والندم والأحزان ما يكدّر عليك الصفو، فقد انتهى الأمر وراح، وعليك أن تسلّم الأمر للجبّار ﷻ، «**قل: قدّر الله وما شاء فعل**». والله لو أننا سرنا على هدي هذا الحديث لاسترحنا كثيراً، لكن تجد الإنسان أولاً: لا يحرص على ما ينفعه، بل تمضي أوقاته ليلاً ونهاراً بدون فائدة، تضيع عليه سدى. ثانياً: إذا قدّر أنه اجتهد في أمر ينفعه ثم فات الأمر ولم يكن على ما توقّع تجده يندم، ويقول: ليتني ما فعلت كذا، ولو أني فعلت كذا لكان كذا، وهذا ليس بصحيح فأنت أدِّ ما عليك ثم بعد هذا فوّض الأمر لله ﷻ[1].

(١) انظر شرح رياض الصالحين (١/١١٩) لابن عثيمين رحمه الله.

إذاً لا بدّ من مباشرة الأسباب والتوكّل على الله، وبعدها لا يُلام الإنسان على ما جرت به المقادير. وأما من ترك الأخذ بالأسباب أو قصّر في تعاطيها، فإنه يُلام، ولكن حدود اللوم تُقصَر على تركه ما أُمر به من مباشرة الأسباب، ولا يُتعدى بها إلى لومه على المصيبة التي نزلت به عند تركه الأخذ بالأسباب، لأنها إنما نزلت بقدر الله تعالى. بمعنى أن الله تعالى هو الذي ابتلى عبده بهذه المصيبة واختارها له لحكمةٍ يعلمها، من اختبارٍ لصبره أو تكفيرٍ لخطيئته أو رفعٍ لدرجته، ولو شاء الله سبحانه لابتلاه بمصيبة غيرها، أو لصرف عنه البلاء أصلاً ولو كان تاركاً للأخذ بالأسباب، كما قد يُبتلى من احتاط لنفسه وأخذ بجميع الأسباب، فالأمر كله بيد الله سبحانه يصرّفه كيف يشاء لحِكم عظيمة. قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾[1]. قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب، فقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي: ما يشاء، فما شاء كان،

(١) سورة القصص، الآية: ٦٨.

وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرها وشرّها بيده، ومرجعها إليه[1].

أما لومه على تركه ما أمر به من مباشرة الأسباب، فيُستدل له بما قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: من ضيَّع بتركه الأسباب حقاً له، ولم يكن راضياً بفوات حقه، فإنَّ هذا عاجزٌ مفرِّطٌ، وفي مثل هذا جاء قولُ النَّبيِّ ﷺ: «**المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضَّعيف، وفي كُلٍّ خير، احرص على ما ينْفَعُك، واستعن بالله ولا تَعْجز، فإنْ أصابك شيءٌ، فلا تقولنَّ: لو أنِّي فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قُلْ: قَدَّرُ الله وما شاء فعل، فإنَّ اللَّو تفتحُ عمل الشيطان**» خرَّجه مسلم بمعناه من حديث أبي هريرة. وفي سنن أبي داود عن عوف بن مالك: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضيّ عليه لمَّا أدبر: حسبُنا الله ونِعم الوكيل، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ الله يلومُ على العجْز، ولكن عليك بالكَيْس، فإذا غلبك أمرٌ، فقل: حسبي الله ونعم الوكيل**»[2]. انتهى[3].

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/٢٥١).

(٢) رواه أبو داود برقم ٣١٤٣، وضعّفه الألباني في ضعيف أبي داود برقم٧٨٢.

(٣) جامع العلوم والحكم (١/٤٤١).

وأما عدم لومه على المصيبة التي نزلت به عند تقصيره، فيستدل له بالحوار الذي جرى بين نبيّين عظيمين، وهما آدم وموسى عليهما السلام. فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ. فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ**[1]**، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً**». فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى**[2] **ثلاثاً**»[3]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الصَّوَابُ فِي قِصَّةِ آدَمَ وَمُوسَى: أَنَّ مُوسَى لَمْ يَلُمْ آدَمَ إلَّا مِنْ جِهَةِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي أَصَابَتْهُ وَذُرِّيَّتَهُ بِمَا فَعَلَ، لَا لِأَجْلِ أَنَّ تَارِكَ الْأَمْرِ مُذْنِبٌ عَاصٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ: لِمَاذَا أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَك مِنْ الْجَنَّةِ؟ لَمْ يَقُلْ: لِمَاذَا خَالَفْت الْأَمْرَ وَلِمَاذَا عَصَيْت؟ وَالنَّاسُ مَأْمُورُونَ عِنْدَ الْمَصَائِبِ الَّتِي تُصِيبُهُمْ بِأَفْعَالِ النَّاسِ أَوْ بِغَيْرِ أَفْعَالِهِمْ بِالتَّسْلِيمِ لِلْقَدَرِ وَشُهُودِ الرُّبُوبِيَّةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ أَوْ غَيْرُهُ: هُوَ الرَّجُلُ

---

(١) أي: التوراة.

(٢) أي: غلب آدم موسى بالحجة.

(٣) أخرجه البخاري برقم ٦٢٤٠، ومسلم برقم ٢٦٥٢.

تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ[1].

خصال السعادة:

بعد هذه المقدّمة الطويلة في بيان حقيقة السعادة والطريق الموصل إليها، نبدأ بعون الله تعالى ببيان الخصال التي جعلها النبي ﷺ من أسباب السعادة.

ونلاحظ أن الخصال التي عدّها النبي ﷺ من السعادة في هذا الحديث هي خصال دنيويّة، كالمركب الهنيء والدار الواسعة. والإسلام لا ينفي أن يكون للجانب المادي أثر في تحقيق السعادة للإنسان، ولكنها ليست في المحلّ الأول، بل المحلّ الأول هو للإيمان بلا منازعة، فبه يسعد الإنسان ويشعر بالسكينة، وبدونه لا يتذوّق أحد طعم السعادة ولا يجد ريحها مهما رزق من خصال السعادة. فهذه الخصال بدون إيمان قد تؤمّن لصاحبها بعض الراحة والفرح ولكن لفترة وجيزة ثم لا تلبث أن تملّها النفس وتذوي بهجتها. أما سعادة القلب وفرحه الذي يدوم ولا ينقطع فهذا لا يكون إلا بالإيمان. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ففي القلب شعث لا يلمّه إلا الإقبال على الله. وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته. وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق

(١) مجموع الفتاوى (٨/٣١٩).

معاملته. وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه. وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه. وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه. وفيه فاقة لا يسدّها إلا محبته، والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسدّ تلك الفاقة منه أبداً[1].

❍ المرأة الصالحة:

المرأة الصالحة هي سبب عظيم من أسباب سعادة الإنسان في هذه الحياة. والإسلام أَوْلى موضوع اختيار الزوجة أهمية كبرى، وذلك لأنها مسألة مصيرية في حياة الإنسان. فالمرء بالزواج يختار شريكاً في حياته يلازمه في كل أحواله، ويطّلع على جميع أسراره، ويقوم على تربية أولاده، وحياطة عرضه وماله، فهو رفيق دربك في حياتك كلها. فتصوّر كيف تكون سعادتك إذا كان شريكك صالحاً. وقد روى مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**»[2]. وتصوّر أيضاً كيف تكون تعاستك إذا ابتليت

---

(١) مدارج السالكين (٣/١٦٤).

(٢) رواه مسلم برقم ٣٧١٦ من حديث عبدالله بن عمرو.

بشريك مشاكس سيّئ الخلق، ويلازمك في حِلّك وترحالك. لذلك جعل النبي ﷺ الزوجة الصالحة سبباً من أسباب السعادة، وبالمقابل جعل الزوجة السيّئة سبباً من أسباب التعاسة. وفي رواية أخرى للحديث رواها الحاكم عن سعد بن أبي وقاص جاء فيها: «**ثلاثة من السعادة وثلاثة من الشقاء. فمن السعادة: المرأة الصالحة تراها فتعجبك وتغيب عنها فتأمنها على نفسها ومالك... ومن الشقاء: المرأة تراها فتسؤك وتحمل لسانها عليك وإن غبت عنها لم تأمنها على نفسها ومالك...**» الحديث[1].

صفات المرأة الصالحة:

بيّن الشرع الحكيم صفات المرأة الصالحة حتى لا تختلط الصفات على الناس، فيؤثروا في المرأة صفات لا تنمّ عن صلاحها، أو يزهدوا في صفات تكون المعيار لصلاحها، وهذه الصفات تجدها مبثوثة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

فمن الكتاب قول الله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾[2]، قال سيد

(١) رواه الحاكم (٢٦٢/٣)، وحسّنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم ٥٣٦٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٤.

طنطاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: فالصالحات من النساء من صفاتهن أنهن ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ أي: مطيعات لله تعالى ولأزواجهن عن طيب نفس واطمئنان قلب. ومن صفاتهنّ كذلك أنهنّ ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾، قال صاحب «الكشاف»: الغيب خلاف الشهادة، أي: حافظات لمواجب الغيب؛ إذا كان الأزواج غير شاهدين لهن، حفظن ما يجب عليهنّ حفظه في حال الغيبة من الفروج والأموال والبيوت. وعن النبي ﷺ أنه قال: «**خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرّتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها**»، ثم تلا الآية الكريمة[1].

و«ما» في قوله: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ يحتمل أن تكون مصدرية، فيكون المعنى: أن هؤلاء النساء الصالحات المطيعات من صفاتهن أنهن يحفظن في غيبة أزواجهن ما يجب حفظه بسبب حفظ الله لهن ورعايته إياهن بالتوفيق للعلم الذى يحبّه ويرضاه. ويحتمل أن تكون موصولة، فيكون المعنى: أنهن حافظات لغيبة أزواجهن

---

(١) رواه أحمد والنسائي عن أبي هريرة بلفظ: قيل: يا رسول الله، أي النساء خير؟ قال: «**التي تسّره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها ولا في ماله بما يكره**» وحسّنه الألباني في مختصر إرواء الغليل برقم ١٧٨٦.

في النفس والعرض والمال وكل ما يجب حفظه، بسبب الأمر الذي حفظه الله لهن على أزواجهن، حيث كلف الأزواج بالإنفاق عليهن وبالإحسان إليهن، فعليهن أن يحفظن حقوق أزاوجهن في مقابلة الذي حفظه الله لهن من حقوق على أزواجهن.

فالجملة الكريمة تمدح النساء الصالحات المطيعات الحافظات لأسرار أزواجهن ولكل ما يجب حفظه من عرض أو مال أو غير ذلك مما تقتضيه الحياة الزوجية[1].

ومن السنّة: ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[2]. ومعنى «**تربت يداك**»، أي: لصقت يداك بالتراب، أي: افتقرت، فمعناه في الأصل دعاء عليه، ولكن العرب أصبحت تستعمله للتعجب والحثّ على الشيء وهذا هو المراد هنا. فالدين هو العنصر الأساس في اختيار الزوجة. والزوجة المتديّنة هي أكبر عون لزوجها على أمر دينه، إذ تعينه على طاعته لربه،

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي (١/٩٣٣).

(٢) أخرجه البخاري برقم ٤٨٠٢، ومسلم برقم ١٤٦٦.

كما تنصحه إذا زلّ ولا تسايره بأمر فيه معصية لله ﷻ. روى ابن ماجه عن ثوبان رضي الله عنه قال: لما نزل في الفضة والذهب ما نزل، قالوا: فأي المال نتخذ؟ قال عمر: فأنا أعلم لكم ذلك. فأوضع على بعيره فأدرك النبي ﷺ، وأنا في أثره، فقال: يا رسول الله، أي المال نتخذ؟ فقال: «**ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على أمر الآخرة**»[1].

كما أنها أكبر عون له على أمر دنياه. فالمرأة المتديّنة تقبل على زوجها، وتحوطه بالمودّة والحب والرعاية، وتحرص على طاعته ومرضاته، فيتحقق بها الهدف الأساس من الزواج، وهو السكن. قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[2]. وروى ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم برجالكم من أهل الجنة؟ النبيّ في الجنة، والصدّيق في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والرجل يزور أخاه في ناحية**

---

(١) صحّحه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم ١٥٠٥.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢١.

المصر لا يزوره إلا الله ﷻ، ونساؤكم من أهل الجنة: الودود، الولود، العؤود على زوجها التي إذا غضب جاءت حتى تضع يدها في يد زوجها، وتقول: لا أذوق غُمْضاً[1] حتى ترضى»[2].

كما أنها تحفظ عليه عرضه. روى ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا صلت المرأة خمسها، وحصّنت فرجها، وأطاعت بعلها، دخلت من أي أبواب الجنة شاءت**»[3].

وكذا تحفظ ماله وأولاده. روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش، أحناه على ولد في صغره وأرعاه على زوج في ذات يده**»[4]. فقد وصفهن ﷺ بالشفقة على أطفالهن، والرأفة بهم والعطف عليهم، وبأنهن يراعين حال أزواجهن، ويرفقن بهم ويخفّفن الكلفة عنهم، فواحدتهنّ تحفظ مال زوجها وتصونه بالأمانة والبعد عن التبذير، وإذا افتقر كانت له عوناً وسنداً.

---

(١) غمضاً، أي: نوماً.
(٢) حسّنه الألباني في الصحيحة برقم ٢٨٧.
(٣) حسّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ١٩٣١.
(٤) رواه البخاري برقم ٤٧٩٤، ومسلم برقم ٦٦١٨.

❍ المسكن الواسع:

لا شك أن سعة المسكن، بحيث لا يضيق عما يحتاج إليه، نعمة عظيمة لا تخفى. وقد جعله النبي ﷺ من أسباب السعادة. ففي رواية أخرى للحديث جاء فيها: «**ثلاثة من السعادة...**» وعدّ منها: «... **والدار تكون واسعة كثيرة المرافق**»[1].

وبالمقابل؛ فإن ضِيق المسكن وقلة مرافقه من أسباب انزعاج الإنسان وتكدّره، وقد عدّه النبي ﷺ من أسباب الشقاء. وفي تكملة الرواية التي ذكرناها: «... **ومن الشقاء:...، والدار تكون ضيّقة قليلة المرافق**»[2].

شروط اقتناء المسكن الواسع:

لم يجعل الإسلام الإباحة في توسعة المسكن على إطلاقها بل قيّدها بشروط، منها:

الشرط الأول: أن لا يكون لمجرد التباهي ودون الحاجة إليه. وقد عاب نبي الله هود عليه السلام على قومه هذه الخصلة، كما ذكر الله تعالى عنه في القرآن

---

(١) (٢) رواه الحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (٢٦٢/٣)، وحسّنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم ٥٣٦٧.

الكريم قوله لقومه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾[1]. قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: اختلف المفسرون في الريع بما حاصله: أنه المكان المرتفع عند جوادّ الطرق المشهورة. تبنون هناك بناءً محكماً باهراً هائلاً؛ ولهذا قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾ أي: معلماً، بناءً مشهوراً، تعبثون، وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه؛ بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة؛ ولهذا أنكر عليهم نبيّهم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ذلك؛ لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة[2].

وروى ابن أبي حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره عن عَوْن بن عبدالله بن عتبة، أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ: «لَمَّا رَأَى مَا أَحْدَثَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْغوطَةِ مِنَ الْبُنْيَانِ وَنَصْبِ الشَّجَرِ، قَامَ فِي مَسْجِدِهِمْ، فَنَادَى: يَا أَهْلَ دِمَشْقَ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَلا تَسْتَحْيُونَ؟ أَلا تَسْتَحْيُونَ؟ تَجْمَعُونَ مَا لا تَأْكُلُونَ، وَتَبْنُونَ مَا لا تَسْكُنُونَ، وَتَأْمَلُونَ مَا لا تُدْرِكُونَ، قَدْ كَانَتْ قَبْلَكُمْ قُرُونٌ يَجْمَعُونَ فَيُوعُونَ

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٢٨ ـ ١٣٠.

(٢) تفسير ابن كثير (١٥٢/٦).

وَيَبْنُونَ فَيُوثِقُونَ وَيَأَمِّلُونَ فَيُطِيلُونَ فَأَصْبَحَ أَمَلُهُمْ غُرُوراً وَأَصْبَحَ جَمْعُهُمْ بُوراً وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِنُهُمْ قُبُوراً أَلا إِنَّ عَاداً مَلَكَتْ بَيْنَ عَدْنَ وَعُمَانَ خَيْلاً وَرِكَاباً، مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي مِيرَاثَ عَادٍ بِدِرْهَمَيْنِ؟»[1].

الشرط الثاني: أن لا يكون فيه إسراف. والإسراف هو: مجاوزة الحدِّ، وقد بيَّن الله تعالى في كتابه أنه لا يحب المسرفين. وإذا قلنا: إن الإسراف مجاوزة الحد، صار الإسراف يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص والأمكنة، فقد يكون شراء هذا البيت إسرافاً بالنسبة لفلان، وغير إسراف بالنسبة لفلان، فهذا الذي اشترى قصراً كبيراً بمبلغ كبير لا يعدّ مسرفاً إذا كان غنيًّا ويحتاج إليه، لأن هذا سهل بالنسبة للأغنياء الكبار، أما إذا لم يكن غنيًّا فإنه يعتبر مسرفاً، سواء كان من أوساط الناس، أو من الفقراء؛ لأن بعض الفقراء يريد أن يقلّد الأغنياء، فتجده يشتري هذا القصر الكبير بمال يستدينه من الناس.

❍ الجار الصالح:

جعل النبي ﷺ الجار من أسباب سعادة الإنسان

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٤٨٦/١٠).

أو تعاسته، وما ذلك إلا لكثرة احتكاك الإنسان بجاره. فبدأ النبي ﷺ بالأشد ملازمة للمرء ثم بالأدنى، بدأ بالزوجة لأنها تلازم الرجل في كل أحواله، ثم انتقل إلى الجار لأن ملازمته وإن كانت طويلة إلا أنها دون ملازمة الزوجة. فإن كان الجار صالحاً وفّر لك كثيراً من الراحة والاطمئنان، وعدّه النبي ﷺ من أسباب سعادة الإنسان. وأما إن كان سيّئاً فسينغّص عليك عيشك، لأنه قريب منك ومطّلع على كثير من أحوالك، والمرافق المشتركة بينكما كثيرة، ولا يسهل بالتالي التخلص من أذاه، لذلك عدّه النبي ﷺ من أسباب الشقاء.

فمن هنا أوْلى الإسلام الجوار اهتماماً كبيراً، وشرع له كثيراً من الحقوق والآداب، إذ بصلاحه ينعم الجيران بعيش هانئ ويطمئن بعضهم إلى بعض، وبفساده يُنغّص عيشُهم وتتلف أعصابهم وتُهدر أوقاتُهم في خلافات لا تنتهي. ولأهمية الموضوع يُستحسن أن نسلط الضوء على شيء من حقوق الجوار.

حقوق الجوار:

جعل الإسلام للجوار حرمة مصونة وحقوقاً كثيرة، لم تعرفها قوانين البشر وشرائع الدول في أزهى عصورها، مما يدلّك على فضل الإسلام وسموّ تعاليمه.

وقد قرن الله سبحانه وتعالى حقّ الجوار بعبادته وتوحيده، ليرشدنا إلى تعظيم هذا الحق وعدم الاستخفاف به، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾[1].

فصدّر سبحانه تلك الوصايا الحكيمة التي اشتملت عليها الآية الكريمة بالأمر بعبادته والنهي عن أن نشرك به شيئاً، لأن إخلاص العبادة له أساس الدين، ومداره الأعظم الذي بدونه لا يقبل الله من العبد عملاً ما، ولأن في ذلك إيماء إلى ارتفاع شأن تلك الوصايا التي سيقت بعد ذلك، إذ قَرنُها بالعبادة والتوحيد يُكسبها عظمةً وجلالاً.

ثم أوصى سبحانه بالإحسان إلى الوالدين، فقال: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ﴾، أي: عليكم أن تخلصوا لله العبادة ولا تشركوا معه شيئاً، وعليكم كذلك أن تُحسنوا إلى الوالدين بأن تطيعوهما وتكرِموهما وتستجيبوا لمطالبهما التي يرضاها الله تعالى، والتي في استطاعتكم أداؤها.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٦.

وقد جاء الأمر بالإحسان إلى الوالدين عقب الأمر بتوحيد الله، لأن أحق الناس بالاحترام والطاعة بعد الله ﷻ هما الوالدان؛ لأنهما هما السبب المباشر فى وجود الإنسان. ثم أمر سبحانه بالإحسان إلى الأقارب واليتامى والمساكين، فقال: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾، أي: وأحسنوا كذلك إلى أقاربكم الذين جمعت بينكم وبينهم رابطة القرابة والنسب، وإلى اليتامى الذين فقدوا الأب الحاني بأن تعطفوا عليهم، وترحموا ضعفهم، وتحسنوا تربيتهم ورعايتهم. وإلى المساكين الذين هم في حاجة إلى العون والمساعدة لفقرهم وضعفهم وعدم وجود ما يقوم بكفايتهم.

ثم أمر سبحانه بالإحسان إلى طائفة أخرى من الناس، فقال تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾. والجار ذو القربى: هو الجار الذى قَرُب جواره، أو هو الذي له مع الجوار قُرْب واتصال بنسب أو دين، فإنّ له مع حق الجوار حق القرابة. والجار الجنب: هو الجار الذي بَعُد جواره عن جوارك، يقال: اجتنب فلان فلاناً إذا بَعُد عنه. وقيل: هو الجار الذي لا قرابة في النسب بينه وبين جاره، ويقابله الجار ذو القربى[1]. وسواء كان

(١) انظر الوسيط لسيد طنطاوي (١/٩٤٠).

المراد بالجار هذا المعنى أو ذاك المعنى، فإن للجار حقاً، سواءً كان قريباً أو أجنبيًّا، ملاصقاً أو بعيداً، مسلماً أو كافراً، محسناً أو مسيئاً، وله مراتبُ بعضُها أعلى من بعض، تعلو وتنقص بحسب قربه وقرابته ودينه وخلقه، فيُعطى كلٌّ بحسب حاله وما يستحق.

فالجار الملاصق لك في الدار ليس كالبعيد، وله من الحقوق ما ليس للبعيد، والجارُ ذو القربى ليس كالجار الأجنبي، وصاحبُ الدين ليس كالفاسق المؤذي. وكما يكون الجوار في المسكن، كذلك يكون في العمل والسوق والمسجد والسفر والدراسة ونحو ذلك، بل يشمل مفهوم الجوار التجاور بين الدول، فلكل دولةٍ على جارتها حقوق.

هذه وصيّة الله ﷻ في كتابه، أما وصيّة رسول الله ﷺ فجاءت في صورة جليلة وتعبير مستفيض لحقوق الجار، والوصاية به، والصيانة لعرضه، والسترِ لعورته، وغضّ البصر عن محارمه، والبعد عن كل ما يريبه ويسيء إليه، وعبّر عنها رسول الله ﷺ بقوله: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثه**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري برقم ٥٦٦٩، ومسلم برقم ٢٦٢٥ من حديث ابن عمر.

فالحديث أعطى الجوار حقوقاً قريبة من حقوق الأنسباء والأزواج الذين يستحقون وراثة قريبهم بعد موته. وهذه الحقوق يمكن إرجاعها إلى أصلين اثنين:

الأصل الأول: كفّ الأذى عن الجيران:

جاء الزجر الأكيد والتحذير الشديد في حق من يؤذي جاره؛ لأن الأذى بغير حق محرّم، وأذيّة الجار أشدّ تحريماً. فروى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عن النَّبِي ﷺ قَالَ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَصْمُتْ**»[1].

وروي أيضاً عن أبي شريح أن النبي ﷺ قال: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**»، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «**الذي لا يأمن جاره بوائقه**[2]»[3].

كما بيّن النبي ﷺ أن أذيّة الجار هي من أسباب دخول النار. فروى أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

---

(١) رواه البخاري برقم ٦١٣٦.
(٢) بوائقه، جمع بائقة: وهي الظلم والشر والأذى.
(٣) رواه البخاري برقم ٥٦٧٠.

رجل: يا رسول الله، إن فلانة، يذكر من كثرة صلاتها وصدقتها وصيامها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها. قال: «**هي في النار**».

قال: يا رسول الله، فإن فلانة، يَذكر من قلة صيامها وصلاتها وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط[1] ولا تؤذي جيرانها. قال: «**هي في الجنة**»[2].

وجاء الخبر بإقرار اللعن لمن يؤذي جاره، فروى أبو داود في سننه عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو جاره، فقال: «**اذهب فاصبر**». فأتاه مرتين أو ثلاثاً، فقال: «**اذهب فاطرح متاعك في الطريق**». فطرح متاعه في الطريق، فجعل الناس يسألونه، فيخبرهم خبره، فجعل الناس يلعنونه: فعل الله به، وفعل، وفعل. فجاء إليه جاره، فقال له: «**ارجع لا ترى مني شيئاً تكرهه**»[3].

---

(١) الأثوار من الأقط أي: قطع منه، جمع ثور، وهو: قطعة من الأقط. والأقط ـ بفتح الهمزة وكسر القاف وقد تسكن ـ: هو جبن اللبن المستخرج زبده.

(٢) رواه أحمد والبزار وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٢٥٦٠.

(٣) أخرجه أبو داود، وقال عنه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم ٥١٥٣: حسن صحيح.

فأذى الجيران من الذنوب الكبار، لأنه رُتّب عليه اللعن والوعيد بدخول النار، وله صُوَر كثيرة تتفاوت في درجة تحريمها بحسب أثرها في إلحاق الضرر.

صُوَر أذيّة الجيران:

من صور أذيّة الجار: خيانته والغدر به:

كالتجسس عليه، أو الوشايةِ به عند أعدائه، أو تتبّع عوراته، والنظر إلى محارمه، فإنه من أقبح الخصال وأحطّها، ولا يصنع ذلك إلّا لئيم خسيسُ الطبع، فإن العرب على جاهليتها كانت تأنَف من مثل هذه الخصال الدنيئة وتأباها وتفخر بالترفّعِ عنها، كما قال عنترة:

وأغضّ طرْفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

ولهذا جاء الوعيد الشديد من النبي ﷺ محذّراً كلَّ معاكسٍ وغادرٍ ومتطلع على عورات جيرانه ونسائهم. روى الشيخان عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**». قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مخافة أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**». قُلْتُ: ثُمَّ أَي؟ قَالَ: «**أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري برقم ٦٨١١، ومسلم برقم ٢٦٧.

وروى أحمد عن المقداد بن الأسود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**ما تقولون في الزنا؟**»، قالوا: حرام، حرّمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره**» الحديث[1].

ومن صور أذيّة الجيران: سرقة أغراضهم وأمتعتهم:

وقد شدّد الإسلام النكير في هذا.

فروى أحمد عن المقداد بن الأسود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**ما تقولون في السرقة؟**»، قالوا: حرّمها الله ورسوله، فهي حرام. قال: «**لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره**»[2].

ومن صور أذيّة الجيران: تأجير من لا يرغبون في إسكانه بينهم:

كحال من يؤجر للفسقة المنحرفين الذين يُخشى

---

(١) رواه أحمد، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٢٥٤٩.

(٢) هو جزء من حديث رواه أحمد، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٢٥٤٩.

منهم إفساد أبناء الحي، أو كحال من يؤجّر المحلات التي تجلب الضرر على الجيران. لما روى ابن ماجه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قضى أن: «**لا ضرر ولا ضرار**»[1]. ففيه تحريم إلحاق الضرر بالناس عموماً، سواء كانوا جيراناً أو غيرهم، إلا أن التحريم يتأكد في حق الجيران لما ذكرنا من حرمتهم.

والفرق بين الضَّرر والضِّرار: أن الضّرر فيه إيصال الأذى للغير ولكن يرجع على الموصل فائدة، وأما الضّرار فهو لمجرد إلحاق الأذى بالغير دون أن يرجع على الموصل أي فائدة، وهذا اختيار ابن عبدالبرّ وابن الصلاح في الفرق بينهما[2].

وعلى كلٍّ فقد قضى النبي ﷺ بتحريم الضرر والضرار، فأي أذى يلحق بالجار بغير حق فهو حرام، سواء عاد على الملحق بفائدة أو لم يعُد.

قال الإمام أحمد رحمه الله: لا يضارّ جاره بحفر بئر أو كنيف[3] إلى جنب حائطه، وإن كان في حدّه؛ فلا

---

(١) رواه ابن ماجه برقم٢٣٣١، وصحّحه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم ١٨٩٥.

(٢) راجع شرح الأربعين النووية للشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ (١/٢٥٤).

(٣) الكنيف: الحمّام.

يضارّه بذلك. قلت: فقدر أن يمنعه؟ قال: نعم يمنعه[1].

وقريب من هذا أن يبيع الرجل ما يملكه من منزل أو أرض دون عرض ذلك على جيرانه. روى ابن ماجه عن ابن عباس ﷺ عن النبي أنه قال: «**من كانت له أرض فأراد أن يبيعها فليعرضها على جاره**»[2].

الأصل الثاني: الإحسان إلى الجيران:

حُسن الجوار لا يكفي فيه أن يكفّ الجار أذاه عن جاره، بل يدخل فيه أن يُحسن إليه في كافّة وجوه الإحسان. روى الشيخان عن أبي شريح قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُحسن إلى جاره**»[3].

وروى الترمذي عن عبدالله بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره**»[4].

---

(١) مسائل الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه برقم ٣٣٨٨.

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم ٢٤٩٣، وصحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٢٣٥٨.

(٣) رواه مسلم بلفظه برقم ١٨٥، والبخاري بلفظ: «**فليكرم جاره**» برقم ٥٦٧٣.

(٤) رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٢٥٦٨.

والإحسان إلى الجيران له أيضاً صور كثيرة يستحسن ذكر بعضها:

صور الإحسان إلى الجيران:

من صور الإحسان للجيران: إكرامهم بالطعام:

فتذكُّر الجيران بصحن من الطعام يعزّز الصّلة بينهم، ويُشعرهم أنهم من أهل البيت. روى مسلم عن أبي ذر ﷺ قال: إِنَّ خَلِيلِي ﷺ أَوْصَانِي: «**إِذَا طَبَخْتَ مَرَقاً فَأَكْثِرْ مَاءَهُ ثُمَّ انْظُرْ أَهْلَ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِكَ فَأَصِبْهُمْ مِنْهَا بِمَعْرُوفٍ**»(١).

ومن صور الإحسان إلى الجيران: الإهداء لهم:

إذ لا تسلم العلاقة بين الجيران من بعض الهفوات والزلّات، فتأتي الهديّة لتذهب ما يبقى في النفوس من انزعاج وتضايق.

روى البخاري عَنْ عَائِشَةَ ﷺ قالت: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي جَارَيْنِ، فَإِلَى أَيِّهِمَا أُهْدِي؟ قَالَ: «**إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكِ بَاباً**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم برقم ٦٨٥٦.

(٢) أخرجه البخاري برقم ٢٢٥٩.

وينبغي للجارة أن لا تحقر هديّة جارتها مهما رخصت، لأن الهديّة لا تقدّر بقيمتها، وإنما تقدّر بما ترمز إليه من معنى التودّد والتحابّ.

روى الشيخان عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**يا نساء المسلمات، لا تحقرنّ جارة لجارتها ولو فِرسن شاة**»[1]، وفرسن الشاة هو حافرها، وهو عظم قليل اللحم، والمقصود به المبالغة في الحثّ على الإهداء ولو في الشيء اليسير، وخصّ النساء بالخطاب لأنه يغلب عليهن استصغار الشيء اليسير والتباهي بالكثرة وأشباه ذلك.

ومن صور الإحسان إلى الجيران: حمايتُهم من أي سوء قد يتعرضون له في أعراضهم أو أبدانهم أو أموالهم:

وقد كانت العرب تفاخر بحماية الجار وتتغنّى به في أشعارها.

قال السموأل:

تُعَيِّرُنا أَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنا ... فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكِرَامَ قَلِيلُ
وَما قَلَّ مَنْ كَانَتْ بَقَاياهُ مِثْلَنا ... شَبابٌ تَسَامَى لِلْعُلَا وَكُهُولُ
وَما ضَرَّنا أَنَّا قَلِيلٌ وَجارُنا ... عَزِيزٌ وَجارُ الأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ

(١) أخرجه البخاري برقم ٢٤٢٧، ومسلم برقم ١٠٣٠.

ومن صور الإحسان إلى الجيران: إيصال النفع لهم:

ومعلوم أن بين الجيران مرافق مشتركة كالجدران والأسوار ونحوها، وربما احتاج الجار أن يضع خشبة أو نحوها على جدار جاره ليستفيد منها، فلا يجوز له منعه منها، لأنها تنفع الجار ولا تعود بالضرر على الآخر. روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لاَ يَمْنَعُ جَارٌ جَارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَهُ فِى جِدَارِهِ**»، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَا لِي أَرَاكُمْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ وَاللَّهِ لأَرْمِيَنَّ بِهَا بَيْنَ أَكْتَافِكُمْ[1].

فهنا نهى النبي ﷺ المسلم أن يمنع جاره من الاستفادة من جداره، بغرز خشبة أو نحوها، لأن ذلك شيء يسير، وينبغي أن يُتسامح به ويُتساهل فيه. ثم قال أبو هريرة ﷺ وهو راوي الحديث: «ما لي أراكم عنها معرضين!» أي: تعرضون عن التساهل في مثل هذه الأشياء. «والله لأرمينّ بها بين أكتافكم»، أي: ألزمكم بهذه السنة. وهذا الحديث قاله أبو هريرة رضي الله تعالى عنه حينما كان أميراً على المدينة في زمن

(١) أخرجه البخاري برقم ٢٤٦٣، ومسلم برقم ٤٢١٥.

مروان بن الحكم، فهو أمير ينتهي إليه الأمر، وكان يتولى القضاء والإمارة والفتوى[1].

ومن صور الإحسان إلى الجيران: احتمال أذاهم:

فالجار إذا أساء إليه جاره له أن يردّ الإساءة بمثلها، والأفضل له أن يعفو عنه ويصبر على أذاه، وهو من أعظم صور الإحسان، أن يغضي عن هفواته، ويتلقى بالصفحِ كثيراً من زلّاته وإساءاته، ولا سيما إن صدرت منه عنَ غير قصد.

روى أحمد عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله: «**ثلاثة يحبهم الله...**» وذكر منهم: «... **والرجل يكون له الجار يؤذيه جارُهُ فيصبر على أذاه حتى يفرّق بينهما موتٌ أو ظَعْن**[2]»[3]. وقال الحسن البصري: «ليس حسنُ الجوار كفَّ الأذى، ولكن حسن الجوار احتمالُ الأذى»[4].

---

(١) انظر سبل السلام للصنعاني (٦٠/٣)، وشرح بلوغ المرام للشيخ عطيّة محمد سالم (٨/٢٠٧).

(٢) الظعن: السفر.

(٣) رواه أحمد، وصحّحه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم ٥٣٨٥.

(٤) جامع العلوم والحكم (٢٩/١٧).

قال الشاعر:

أقول لجاري إذا أتاني معاتباً مُدِلًّا بحقٍّ أو مُدلًّا بباطلِ
إذا لم يصل خيري وأنت مجاورٌ إليك فما شرّي إليك بواصل

هذه بعض حقوق الجيران على بعضهم. فمن وفّق بجار صالح يراعي فيه هذه الحقوق فقد نال حظاً عظيماً من سعادة الدنيا كما أخبر النبي ﷺ.

تساهل الناس في تحرّي الجوار الصالح:

لقد تساهل الناس في أيامنا هذه في تحرّي الجوار الصالح، فتجد أحدهم إذا أراد شراء منزل جديد، يحرص على حسن الموقع والمنظر ومدى وصول الخدمات إليه، ثم لا يتحرى عن جيرانه ويسأل عن صلاحهم والتزامهم بالدين، وهو خلل كبير، خاصة في جوار يطول أمدُه، كمن أراد بناء منزل قرب أناس بنوْا قبله، فإن كانوا سيئين ابتلي بهم عمره كله. لذلك كان النبي ﷺ يستعيذ بالله من الجار السيئ الذي يدوم جواره. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللَّهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحوّل**»[1].

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، وحسّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٢٥٥٦.

فجار البادية يُقصد به من يجاورك في مكان مؤقت كمن يجاورك في مشوار أو رحلة أو إقامة بفندق، فهذا ولو كان سيئاً فجواره لا يطول، ويسهل التحوّل عنه، بخلاف من يقيم إلى جوارك بشكل دائم سيّما إذا كان البيت مملوكاً لك فلا يسهل التحوّل عنه.

لذلك لا بدّ في البحث عن منزل للسكن من النظر أولاً في حال الجيران، فإن كانوا سيئين استغنى العاقل عن جوارهم مهما كان في العرض من مغريات. ويُحكى أن رجلاً ابتلي بجيران سوء فصبر عليهم وصابر، إلا أنهم ازدادوا سوءاً، فباع داره برُخص وانتقل عنهم، فلامه أقاربُه ومعارفُه لوماً شديداً فقال:

يلومونني إذ بعت بالرخص منزلاً ولم يعرفوا جاراً هناك ينغِّصُ
فقلت لهم كفّوا الملام فإنها بجيرانها تغلو الديار وترخصُ

ومن هنا كان السلف ﷺ يقدّمون الجار الصالح على أي شيء. فهذا أبو الجهم العدوي باع داره بمائة ألف درهم، ثم قال: فبكم تشترون جوار سعيد بن العاص؟ قالوا: وهل يُشترى جوارٌ قط؟ قال: ردّوا إلي داري وخذوا مالكم. ما أدَع جوار رجل إن قعدتُ سأل عني، وإن رآني رحّب بي، وإن غبتُ حفظني، وإن شهدت قرّبني، وإن سألتُه قضى حاجتي، وإن لم أسأله

بدأني، وإن نابتني جائحة فرَّج عني، فبلغ ذلك سعيد بن العاص فبعث إليه بمائة ألف درهم[1].

فالجارُ الصالح له منزلةٌ عند العقلاء، فهم يحرصون عليه، ولا يفرّطون في مجاورته.

❍ المركب الهنيء:

ويُقصد به وسيلة النقل، سواء كانت دابّة كما في العصور الأولى، أو سيّارة كما في أيامنا هذه. فإذا كانت وسيلة النقل التي يستعملها المرء في أغلب أوقاته مريحة له، وتلبّي حوائجه وأغراضه من دون متاعب أو مشاكل، فهي نعمة عظيمة، بل عدّها النبي ﷺ من أسباب سعادة الإنسان، لأنها تُريحه وتسهّل عليه أموره وتعينه على قضاء حوائجه الدينية والدنيوية، وتدفعه بالتالي إلى شكر الله تعالى على تيسير أموره واغتنام أوقاته، وإلى تذكّر نعمه. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[2].

---

(١) ربيع الأبرار للزمخشري (١/٧٥).

(٢) سورة الزخرف، الآيات: ١٢ ـ ١٤.

قال سيد طنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: وسخّر لكم بقدرته ورحمته من السفن التي تستعملونها في البحر، ومن الإبل التي تستعملونها في البر، ما تركبونه وتحملون عليه أثقالكم، وتنتقلون بواسطته من مكان إلى آخر. قال: ثم بيّن سبحانه الحكمة من هذا التذليل والتسخير للفلك والأنعام فقال: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ والضمير في ﴿ظُهُورِهِۦ﴾ يعود إلى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾، وجاء مفرداً رعاية للفظ ﴿مَا﴾، وجمع الظهور لأن المراد بالمركوب جنسه.

والاستواء: الاستعلاء على الشيء، والتمكّن منه، أي: سخر لكم من السفن والأنعام ما تركبونه، ولتستعلوا على ظهوره استعلاء المالك على مملوكه.

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟﴾ بعد كل هذا التمكّن والاستعلاء ﴿نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تلك السفن والأنعام التي تركبونها. والضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ يعود أيضاً إلى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ باعتبار اللفظ. ﴿وَتَقُولُوا۟﴾ على سبيل الشكر لله تعالى والاعتراف بفضله ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾، أي: وتقولوا: جلّ شأنُ الله، وتنزّه عن الشريك والمثيل، فهو الذي سخّر

لنا هذا المركوب من الفلك والأنعام، وجعله منقاداً لنا، طائعاً لأمرنا. ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي: والحال أننا ما كنا لهذا المركوب الصعب بقادرين على التمكّن منه، لولا أن الله تعالى سخّره لنا، وجعله منقاداً لأمرنا. فقوله: ﴿مُقْرِنِينَ﴾ أي: مطيقين وقادرين وضابطين، من أقرن الشيء، إذا أطاقه وقدر عليه، حتى لكأنه صار له قرناً، أي مثله في الشدّة والقوّة. والمقصود: ما كنا بقادرين أو بمطيقين لتذليل هذه السفن والأنعام، لولا أن الله تعالى قد جعلها منقادة لنا، ومسخّرة لخدمتنا.

ولا يخفى أن الجمل أقوى من الإنسان، وأن البحر لو لم يذلله الله سبحانه لنا، لما قدرت السفن على الجري فيه. وقوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ من جملة ما يقولونه أيضاً عند استوائهم على ظهور السفن والإبل، أي: تقولون إذا استويتم عليه: سبحان الذي ذلّل لنا هذا المركب الصّعب، وما كنا بقادرين على تذليله لولا أن الله تعالى وفقنا لذلك، وإنا إلى ربنا وخالقنا لراجعون يوم القيامة، لكي يحاسبنا على أعمالنا، ويجازينا عليها بجزائه العادل[1]. وما أجمل

(١) الوسيط لسيد طنطاوي (١/٣٧٨٧).

الإشارة التي نبّه إليها ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ قال: أي: لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه سيْرُنا الأكبر، وهذا من باب التنبيه بسَيْر الدنيا على سَيْر الآخرة، كما نبّه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[1]، وباللباس الدنيوي على الأخروي في قوله تعالى: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[2][3]. وقد جاء بيان صفة المركب الهنيء في رواية أخرى لهذا الحديث، رواها الحاكم عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة من السعادة وثلاثة من الشقاء. فمن السعادة: المرأة الصالحة تراها فتعجبك وتغيب عنها فتأمنها على نفسها ومالك، والدابّة تكون وطيئة فتلحقك بأصحابك، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق**...» الحديث[4].

فهذه الرواية بيّنت صفة المركب الهنيء، وهي قوله: «**والدابة تكون وطيئة**»، أي: هيّنة سريعة المشي

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.

(٣) تفسير ابن كثير (٧/٢٢٠).

(٤) رواه الحاكم (٣/٢٦٢)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم ٥٣٦٧.

سهلة الانقياد «**فتلحقك بأصحابك**» بلا تعب ولا مشقة في الإحثاث[1].

بخلاف ما لو كانت وسيلة النقل متعبة ومكلفة، ولا يكاد المرء يقضي عليها حاجة من حوائجه إلا وتكلفه الكثير من وقته وماله وجهده، حتى تصيرعبئاً عليه وسبباً من أسباب تعاسته، لأنها تبعث في نفسه الضّيق والملل والانزعاج عند كل استخدام لها. وقد جاء في تكملة حديث سعد الذي ذكرناه آنفاً: «... **ومن الشقاء: المرأة تراها فتسؤك وتحمل لسانها عليك وإن غبت عنها لم تأمنها على نفسها ومالك، والدابّة تكون قَطوفاً فإن ضربتها أتعبتك وإن تركتها لم تلحقك بأصحابك، والدار تكون ضيّقة قليلة المرافق**»[2]. فوصف الدابة بأنها قطوف أي: بطيئة لا تلبي رغبة صاحبها إلا بشق الأنفس، وجعلها سبباً من أسباب الشقاء.

(١) فيض القدير (٤٢٢/٣).

(٢) سبق تخريجه آنفاً.

الخاتمة

كثير من الناس كتبوا في بيان طريق السعادة، وأرشدوا الناس إلى الطريق بظنهم، ولكن ما كل من طلب السعادة نالها، ولا كل من أرشد إلى طريقها أصابها.

فالسعادة هي الغاية التي يسعى إليها كل الناس، وطريقها لا يُدرك إلا من قبل الوحي، لأن الله تعالى هو الذي خلق الناس وخلق أجسامهم وأرواحهم، وهو أعلم بما يُسعدها وما يُشقيها، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[1]، أي ألا يعلم الله تعالى شأن الذين خلقهم، والحال أنه سبحانه هو الذي لطف علمُه ودقّ، إذ هو المدبّر لأمور خلقه برفق وحكمة، العليم علماً تاماً بأسرار النفوس وخبايا ما توسوس به[2].

---

(١) سورة تبارك، الآية: ١٤.

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي (١/٤٢٧١).

فمن رام السعادة في الدنيا والآخرة فليلزم كتاب الله وسنّة نبيّه فهما الدليلان الصادقان على طريق السعادة.

والله تعالى نسأل أن يرزقنا وأحبابنا السّعادة في الداريْن إنه سميع مجيب.

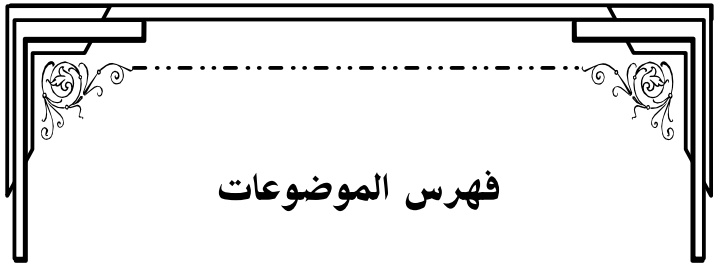

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدّمة	٥
متن الحديث	٧
شرح الحديث	٧
تعريف السعادة	٨
أوهام السعادة	٨
البحث عن طريق السعادة	١٠
بيان طريق السعادة	١٠
الخطوة الأولى	١١
أمثلة لمن ذاق حلاوة الإيمان	١٧
واقع الناس	٢٠
الخطوة الثانية	٢١
الأخذ بالأسباب	٤٠
خصال السعادة	٤٨

الموضوع	الصفحة

المرأة الصالحة ٤٩
المسكن الواسع ٥٥
الجار الصالح ٥٧
المركب الهنيء ٧٤
الخاتمة ٧٩
الفهرس ٨١